

بئست البيعة.. إن لم تكن لله تعالى

في كل زمانٍ تزدهم فيه المصالح، وتتكاثر فيه الرغبات، وتتسابق فيه النفوس إلى المطامع؛ تضيع عند ضعفاء الإيمان معاني البيعة الشرعية لولي الأمر، فتقلب من طاعةٍ لله تُؤدّي بالمعروف، إلى صفقةٍ تُعقد مع السلطة، تُرهن بالعطاء، وتُفسخ عند انقطاع المصلحة، وتُسعر وتُقيّم على قدر المنفعة والعائد.

إنها طاعةٌ ملوثة، ليست لله تعالى، بل للدينار والجاه والمنفعة والدعة، وقد حذر النبي ﷺ من طاعةٍ تنبع من قلوب مريضة وإيمانٍ ضعيف، فقال ﷺ:

«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: ... ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفى، وإن لم يُعطه لم يفِ».

فهذا رجلٌ جعل بيعته سلعة لا قربة، وربط طاعته بالمغنم لا بالله تعالى، وعلق ولاءه على الظفر والكسب؛ فإن نال منفعةً أخلص، وإن خابت أطماعه نكث ونقض!

وقد قال الله تعالى في وصف من ربط رضاه بالعطاء، وطعنه بالحرمان:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

قال الطبري:

”ليس بهم في عيبتهم إياك فيها، وطعنهم عليك بسببها: الدين، لكن الغضب لأنفسهم، فإن أنت أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا عنك، وإن أنت لم تعطهم منها سخطوا عليك وعابوك“.

فمن ضعف إيمانه بربه، جعل بيعته رهينة العطاء، وطاعته أسيرة المصلحة، لا يثبت على مبدأ، ولا يصبر عند الشدائد، وما إن تقل الغنيمة وتفنى المصلحة حتى يهجر الطاعة، وينقلب على بيعته.

وقد قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قال الطبري:

”فإنما ينقض بيعته [التي بايع رسول الله ﷺ على الوفاء بها]؛ لأنه بفعله ذلك يخرج ممن وعده الله الجنة بوفائه بالبيعة، فلم يضرّ بنكته غير نفسه، ولم ينكث إلّا عليها“.

♦ وشتان ما بين بيعة هشة كبيعة الخوارج، الذين قال عنهم النبي ﷺ: «**كلاب أهل النار**»، وبيعة راسخة كبيعة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

لقد كانت بيعتهم لله أولاً، لا يطلبون بها دنيا، ولا يعلّقونها على منفعة. طاعة نابعة من الإيمان والدين والتقى، قائمة على اليقين، لا تباع ولا تُشترى.

وصح عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال لعثمان بن عفان رضي الله عنه:

” فوالله لو أمرتني أن أتعلّق بعروة قَتَبٍ - حلقة قماشٍ خشنٍ - حتى أموت، لفعلتُ “.

وصح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه جاء إلى عبد الله بن مطيع زمن وقعة الحرّة، فقال له -ناصحًا:

”إِنِّي لَمْ آتِكَ لِأَجْلِسَ، أَتَيْتُكَ لِأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةِ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»“.

♦ إنها طاعةٌ لا تهزّها المصائب، ولا تغيّرّها الأحوال، ولا تُباع بعَرَضٍ من الدنيا.

فلنقف اليوم مع بعض النماذج المؤسفة:

• رجلٌ كان لا يفتأ يحدث الناس عن وجوب السمع والطاعة، فلما لم يُقبل ابنه في وظيفة حكومية معيّنة، تنكّر لما كان يدعو إليه، وجعل يطعن ويعترض.

• ورجلٌ كانت له وجاهة وسلطة، تُفتح له الأبواب وتُلبّى له الرغبات، فلما زالت عنه السلطة وأُغلقت عنه الأبواب، انقلب على ولي أمره، وبَدّل ما كان عليه بسبب فقدان مكانته وسطوته.

• ورجلٌ رُفعت عليه فواتير الكهرباء والوقود، فلما مسّه الضيق في دنياه، ارتدّ عن بيعته، وتحول إلى ساخطٍ معترض.

• ورجلٌ عاش في رخاء، فلما تقاعد وضافت به الحال والمداخيل، نكص على عقبه، كأنّ النعمة كانت هي الدافع إلى السمع والطاعة.

• ورجلٌ فشل في حياته، وتعرّست عليه الأسباب، فجعل الطعن في ولاة الأمور متنفسًا لفشله، لا نصيحةً لله كما أمر الله، بل تنفيسًا عن هوى، وسترا لعجز.

• ورجلٌ رأى جاره يشتري سيارةً فارهة، أو مزرعةً واسعة، أو يسافر في رفاه، فعجز هو عن مجاراة ذلك، فصار يطعن في ولاة الأمور تنفيسًا عن حسده ومرضه القلبي.

• ورجلٌ منعه قدرُ الله تعالى من الإمكانيات والفرص والنجاح، فجعل نقد وليّ الأمر مخرجًا يعلّق به سخطه على ما قدره الله تعالى له.

أولئك لا يعرفون البيعة والطاعة لله تعالى، بل ميزانهم المال والمناصب والمصالح والجاه والمنفعة؛ فإن شبعوا مدحوا ومجّدوا، وإن جاعوا انتقدوا وطعنوا.

♦ أما البيعة والطاعة الحقيقية:

- فهي ما كانت لله، لا للمصلحة.
- وما بُنيت على التقوى، لا على الطمع.
- وما ثبتت في السراء والضراء، والمنع والعطاء؛ لأنها نابعة من إيمان، لا من طمعٍ دنيوي.

وقد صحَّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أوصى سويد بن غفلة، فقال له:

”يا أبا أمية، إني لا أدري لعلِّي لا ألقاك بعد عامي هذا، فإن أُمِّر عليك عبدٌ حبشيٌّ مجدّع فاسمع له وأطع، وإن ضربك فاصبر، وإن حرمك فاصبر، وإن أراد أُمراً يُنقص دينك فقل: سمعًا وطاعة، دمي دون ديني. ولا تُفارق الجماعة“.

وفي رواية أخرى:

”وإن دعاك إلى أمرٍ منقصةٍ في دنياك، فقل: سمعًا وطاعة، دمي دون ديني“.

قال رسول الله ﷺ:

«من خرج من الطاعة -ولي أمره- وفارق الجماعة -بيعة الحاكم- فمات، مات ميتةً جاهليةً»

♦ الخلاصة:

- بيعة منشؤها المصلحة، لا تصمد إذا ضاقت الأحوال.
- وطاعة يغذيها الطمع، تنهار إذا شحّ العطاء.
- فبئس البيعة والطاعة، إن لم تكن لله تعالى وحده.

قال ﷺ:

«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره».

كتبه: الشيخ محمد عثمان العنجري

الاثنين ١٠ صفر ١٤٤٧ هـ

الموافق ٤ / ٨ / ٢٠٢٥ م